المطلوب إذاً هو أن تتوافق الشريعة
(أية شريعة) في نفوس كل البشر من كل الأديان ،
وأول توافق هو توافق العدالة ويقظة الضمير مع إيمان أي منا ، وليس
في كل الأديان مثلاً أروع من الذي نجده في الإسلام وبالتحديد ما فعله رسول
الله صلى الله عليه وسلم في مرض موته عليه الصلاة والسلام فقد دعا أصحابه وخاطبهم
قائلاً (أيها الناس من كنت جلدت له ظهراً ، فهذا ظهري فليستقد مني ، ومن كنت شتمت
له عرضاً فهذا عرضي فليستقد منه ، ومن أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه ، ولا يخش الشحناء
فهي ليست من شأني) ، وهذه (الشحناء) هي ما عنينا في تقديمنا هذا الحديث الشريف ، فلولا علم
المشرع الأكبر صلى الله عليه وسلم بخطورتها لما خشي منها ، وحذر منها أصحابه وينطبق التحذير على أمته
في ما بعد ، إذ لم يكن في حقيقة دين الإسلام مثل هذه الشحناء حتى مع باقي الأديان السائدة والدليل على ذلك
هو إرسال رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابته مهاجرين إلى الحبشة ، ومعهم رسالة (إن فيها ملك لا يظلم
عنده أحد) ، وصلاته عليه الصلاة والسلام على النجاشي الملك حين علم بموته قائلاً لأصحابه (إن أخاكم النجاشي قد
مات فصلوا عليه ، واستغفروا له) . ومثلما تتعارض الشحناء مع الإيمان فهي تتعارض مع العلم ، فيورد لنا التاريخ أن الأمة
العربية الإسلامية في عصرها الذهبي لم تكن لها مثل هذه الشحناء في قبول العلوم من سائر الأمم ، وكانت تتدارسها تحت
خيمة الدولة فلم يكن غريباً أن ترى في مكان واحد ومجلس واحد حكيماً مسلماً ومترجماً مسيحياً ومنجماً صابئياً وفيلسوفاً
سريانياً يتعاونون في سبيل حل مشكل علمي ، فكانت رسالتهم تتعدى الرقعة الطائفية الضيقة إلى وحدة إنسانية فكرية وأخلاقية ،
وخير مثال على ذلك ما أورده محمد كرد علي عن صورة الحرية الفكرية والدينية في عصر الإسلام الذهبي ما نقله عن الخلف
بن المثنى فقال: شهدنا عشرة في البصرة يجتمعون في مجلس لا يعرف مثلهم . . الخليل بن احمد صاحب العروض (سنّي) ،
والسيد محمد الحميري الشاعر (شيعي) ، وصالح بن عبد القدوس (ثنوي) ، وسفيان بن مجاشع (صفري) ، وبشار بن
برد (خليع ماجن) ، وحماد عجرد (زنديق) ، وابن راس الجالوت الشاعر (يهودي) وابن نظير المتكلم (نصراني) وعمر
ابن أخت المؤيد (مجوسي) وابن سنان الحراني الشاعر (صابئي) فيتناشدون أشعارا وأخبارا) والذي نريد قوله أن لولا هذا
التسامح الفكري لما أمكن لنا أن نرى امة تزدهر وتنهض لتعم نهضتها العالم أجمع. لقد كان من ابرز ما أقره الشرع الإسلامي
في حرية المعتقد هو أن (لا إكراه في الدين) ، ونحن اليوم في القرن الحادي والعشرين ، ينبغي علينا تمثل هذه الآية
تمثلاً حقيقياً ، لأننا نعلم إن الخير كله في ترك الحكم على ذلك للضمير ، وأن نعي الدروس التي تزودنا بها شواهد
التاريخ ، تلك الشواهد التي استند إليها حكماء الأمم الأخرى في حل معضلاتهم فهذا الحكيم الهندي (طاغور) يرى
أن حل مشكلة الهنود هو في دراسة الكتب العربية التي تحوي الروح الإسلامية دراسة مستفيضة فإن فيها حلاً لكل
المشاكل الطائفية والعرقية بقوله: فلو أن الهندوس استطاعوا أن ينظروا في الكتب العربية ويفهموا منها الروح
العربية الإسلامية فهما حسنا ، لأعانهم ذلك من غير شك على فهم عقلية إخوانهم من مسلمي الهند .
فما أحرانا ونحن أخلاف أولئك السلف الذين أصبحوا مثالا يقتدى لحكماء الإنسانية جمعاء ،
أن نقف من موروثنا وقفة المحترم له والمجل لعظمائه ، وأن نحتكم إلى ضمائرنا في
الابتعاد عن الشحناء التي يسعى أعداؤنا إلى الإيقاع بيننا من خلالها ، وأن
نقف من بعضنا موقف المؤيد والناصح والمعاضد ، لا موقف المقصي
والمهمش لصالح جهة أجنبية لم ترد لنا يوما خيرا.

طارق هاشم خميس الدليمي بغداد